التصوف الإسلامي
قراءة نقدية

د / محمد عبد النبي يوسف

التصوف الإسلامي

قراءة نقدية

الحمد لله رب العالمين، الصلاة والسلام علي سيدنا محمد قائد الغر الميامين ، وعلي آلة وأصحابه ومن سار علي دربه ونهجه إلي يوم الدين،،، وبعد،

التصوف في عالمنا يمثل ظاهرة بارزة، وبقدر بروزها يبرز الاختلاف حولها. وتجاهل دراسة التصوف لا يحل قضية الاختلاف حوله، والتصوف بكليته بين مادح وقادح كثيراً ما يملؤه الهوى فيجور عن قصد.

وفي عالمنا المعاصر لا ينبغي أن تظل القضايا المختلف حولها بلا تمحيص، فهذا عصر العلم وحرية الفكر والتعبير، إنه العصر الذي ينتظم فيه صحوة إسلامية ناهضة، ويقع العالم الإسلامي فيه تحت ضغوط ما شهد مثلها من قبل، إذن لابد للصحوة الإسلامية أن تلمس طريقها حتي تبني النهضة علي الدعائم الثابتة وتزيل الركام والأنقاض من ساحتها [١].

أهمية التصوف الإسلامي:

للتصوف الإسلامي أهمية كبيرة يمكن تلخيصها فيما يلي:

أولاً:

التصوف يمثل جزءاً مهماً من تراث المسلمين، وأنه قد أثر في مجريات الحياة الإسلامية لفترة طويلة لا تزال ممتدة، **فهل يمكن إهمال دراسته؟**

ثانياً:

هذه الظاهرة تمثل جزءاً هاماً من الجانب الروحي في الإسلام وهو جانب الزهد والعبادة والنسك، فهل هذه الظاهرة هي السبيل الوحيد لتحقيق الصفاء الروحي والسعادة في الدارين؟ أم أن هناك وسائل أخري لا تتصل بالتصوف تؤدي للنتيجة نفسها علي ما يزعم بعضهم؟

ثالثاً:

هل هناك موازنة في التصوف بين مطالب الجسد ومطالب الروح وأشواقها إلي الزهادة ؟ وهل الأخذ بالماديات يعتبر منافياً لقواعد التصوف؟

---

[١] د/ محمد عثمان صالح (التصوف ودورف في نشر الإسلام في افريقيا) ضمن أمعنال ملتقي التصوف الاسلامي العالمي ١٩٩٥م ص ٣٦٣.

رابعاً:

هل يترك مسرح التصوف مفتوحاً لكل من يريد أن يعرض مساهمته بل بضاعته مهما كانت قيمة هذا البضاعة؟.

خامساً:

ما دور التصوف في جذب غير المسلمين من أهل الملل والأديان الآخرين إلي نور الإسلام.

سادساً:

التصوف في وجه من وجوهه المشرقة ثورة علي كل القيم الهابطة السلبية في حياة الأفراد والشعوب ليترقي بها إلي عقد صلات روحية عليا برب العالمين.

- **والروحية:**

هي جوهر الإنسانية وخصائصها، هي **(العقل والقلب والفكر والإيمان)** هي المقابل للبدن وشهوة الغرائز وهوي الإنسان. وإذا كان هناك حديث عن حكمة الإنسان فهو حديث عن روحيته، وإذا كان هناك حديث عن العدل والمشاركة والتعاون والمحبة وغير ذلك مما يطلب من الإنسان مباشرته فهو (حديث عن بعض خصائص هذه الروحية). وإذا كان هناك حديث عما يجب أن يفعل وما يجب أن يترك في التصرفات والسلوك فهو حديث عما تدعو إليه روحية الإنسان [١].

وإذا حقق الإنسان الروحية فيه فقد إرتفع وسما بالفعل فوق جموح الشهوات والأهواء، أي علا فوقها وساد عليها بتوجيهها وبوضع حد لإنطلاقها ونشاطها.

وإذا أخفق الإنسان في تحقيق هذه الروحية سقط إلي مجال الغرائز وتركها تأخذ زمام الأمر في حياته، وعندئذ لا يضمن لنفسه الإستقرار، بل أصبحت حياته يسيطر عليها القلق.

سابعاً:

التصوف يخاطب وجدان البشر ويهتم يتهذيب سلوكهم وترقيق مشاعرهم، وترقية أرواحهم، ولا شك في أن النزعة الوجدانية قوة أصلية وركيزة هامة في بناء شخصية الإنسان.

---

[١] د- محمد البهي "غيوم تحجب الإسلام القاهر " ١٩٧٩ ط ٢ مكتبة وهبة ص ٩.

- من هنا يأتي التصوف ليحافظ علي قوة النفس، فهو يحقق التوازن النفسي والإعتدال، فيقي بذلك الإنسان من القلق والخوف والإهتزاز.

- وقد فتح الإسلام مجالاً واسعاً للإهتمام يتهذيب النفس وبيان مراتبها وأصنافها، وتكلم القرآن وألسنة علي أدوائها وأدويتها، فكان لابد من العناية بعلم النفس الإسلامي، وهذا ما قام به علماء التصوف في وقت تغاضي نظر من سواهم عن هذا المجال الفسيح، فبحث الصوفية في آفاق النفس وعللها، وأرادوا الكشف عما يكمن في خباياها ووصفوا علاج ذلك بما يناسب من رياضة ومجاهدة وتهذيب.

- وقد نظر الصوفية إلي أن إدعاء التدين دون الإهتمام بآفات النفس والعمل علي تقويمها ضرب من العبث، وإخراج للقضية عن إطارها الصحيح، فبعد الإيمان وإقامة أعمال الإسلام تنبغي العناية يتهذيب النفس. ومن الكمال في المنهج الصوفي أن المعتنقين له صَعدوا فهمهم لأحكام الشريعة تصعيداً عالياً، فأصبح الحلال والحرام لا يتعلقان فقط بأعمال الجوارح، وإنما يشعلان أيضاً أعمال القلب. ومن ثم أصبح الأمر والنهي متعلقاً بالقلب وليس البدن.

إيجابيات التصوف الإسلامي:

لا يخفي علي أحد من المهتمين والدراسين المنصفين ما تزخر به شريعة الإسلام من قيم أخلاقية وطاقات روحية وفضائل إنسانية، ولا يخفى أيضاً علي الباحثين المتجردين أن التصوف قد كان هو التجمع البشرى والمناخ التربوي الذي حافظ علي هذه الشعلة النورانية، والرباط الذي ثابر علي تكوين المجتهدين المجاهدين الحاملين لها عبر تاريخ الإسلام.

والتصوف الصحيح الذي يقره الإسلام يقوم عبر دعائم رئيسية وأسس قويمة، ونصوص شرعية أهمها :

١- الذكر الدائم ليكون المسلم رطب اللسان بذكر الله في جميع الأوقات والأزمان، ويكون في صلة دائمة بالله وعز وجل ومراقباً لجلال الله وعظمته.

٢- الجهاد في سبيل الله بالرباط والمرابطة للدعوة إلي الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنقاذ الناس من الضلال والفساد والظلم والطغيان. والاستبداد والاستكبار، وتذكيرهم بحق الله.

٣- التربية الذاتية ذات الأثر السلوكي، وذلك بتزكية النفس وتربيتها، وأخذها نحو الفضيلة وما يرضي الله تعالي ، وإبعادها عن كل ما يسيء إليها أو يحرفها.

وللتصوف الإسلامي إيجابيات شتي فهو:

أولاً: يتميز من أول نشأته بالتسامح الديني الشديد.

فالتصوف لم يحارب مذهباً أو عقيدة.

وهكذا وجدنا في المجتمعات الصوفية شافعية كالجنيد البغدادي ، ومالكية كأبي بكر الشلبي، وظاهرية كمحي الدين بن عربي ، وكل هؤلاء كانوا يمارسون نشاطهم الروحي مجتمعين بغير أن يقعوا في حبالة الإختلاف والخصومة.

ثانيـاً:

إنه من اللافت للنظر أن فكرة الحب متأصلة في كيانهم الروحي والثقافي ، ويبدأ هذا التوجه بإنكار الذات بوصفه واجباً من واجبات الصوفي حتي يرتفع إلي الحب الإلهي الذي يعم جميع أنواع الحب ، ويضيء سائر الموجودات ، ويربطها برباط يجمعها ويوحدها ويحملها علي أن تسير وفق فطرة الله التي فطرة الناس عليها ، وقد فاض هذا الحب في قلوب الصوفية حتي جعلوه صفة من صفات الذات الإلهية الثلاث وهي الحياة والعلم و القدرة ،وفي هذا المعني قال الحلاج:

العشق في أزل الآزال من قدم فيه به منه يبدو فيه إبداء
العشق لا حدث إذ كان هو صفة من الصفات لمن قتلاه أحياء
لما بدا البدء أبدي عشقه صفة فيها بدا فتلألأ فيه لآ لاء

بل ذهب البعض إلي أن التصوف هو المظهر الروحي الحقيقي عند المسلمين، لأنه المرآة التي تنعكس علي صفحتها الحياة الروحية الإسلامية في أخص مظاهرها فإذا أردنا أن نبحث عن العاطفة الدينية الإسلامية في صفائها ونقائها وعنفها وحرارتها وجدناها عند الصوفية، وإذا أردنا أن نعرف شيئاً عن الصلة الروحية بين المسلم وربه، كيف يصور هذه الصلة، وكيف يجاهد طول حياته في توكيدها وتدعيمها وكيف يضحي بكل عزيز لديه بمن في ذلك نفسه ومحافظة وغِيْرةً عليها، وجب أن نقرأ سير الصوفية المسلمين ونتدبر أقوالهم [١].

ثالثاً: التصدي لغرور العقل:

لا يجادل أحد في أن الدين يدعوا إلي استخدام القياس العقلي وقاعدة النظر في الأكوان، وعجائب المخلوقات، وقصص الأمم السافلة ولكن الدين

[١] د- أحمد عبد الرحيم السايح "آفاق الأساليب الصوفية" ضمن أعمال ملتقي التصوف ص ٤٦٩.

حمل معه أيضاً إحتمال غلط الأمية العقلية، وحمل معه شعوراً قوياً بعجز العقل عن الإحاطة بكل شيء، وعجزه بالخصوص عن الإحاطة بالله، وحمل معه ما يبطل النتائج الحتمية التي يركن العقل أحياناً إلي إطلاقها، كما ظهر من التجارب أن هناك مظاهر لا يعرف العقل ما هي، كما أن العقل نفسه لا يعرف كيف يعقل ولا كيف يفهم.

وإذا كان جمهور المسلمين إستأنسوا بمذهب العقلانية، وإذا كان علماؤهم قد اعتمدوه مبدأ وختاماً بين متوسط في ذلك كالفقهاء ومفرط كالمتكلمين، فإن لصوفية ومن تجاوب مع نظرتهم للدين أعطوا للظاهرة الثانية، ظاهرة عجز العقل مكانتها في منهجهم وطريقتهم، فللعقل دوره وحسناته، ولكن له أيضاً عثراته وسلبياته في تناول الحقيقة الدينية فبقدر ما ينغمس المرء في المحسوسات بقدر ما تنحدر قواته العقلية نحو الوهم والخيال الباطل، وكأن العقل مرآة تستطيع أن تنعكس فيها الحقائق الكبرى أو تصدأ بالكثافات المادية فتساهم في الزيغ عوض أن تؤدي إلي الصواب.

وقد رام الصوفية الاقتراب من الحقيقية الكبرى بالوجدان والكشف والإشراق، فأظهروا عجزهم عن إمتلاك زمام القضية بالقياس والإستنتاج العقليين, واجتهدوا في العبادات المشروعة مكثرين من الإبتهالات والمناجاة آملين أن تهب عليهم نفحة قدسية من حيث لا يحسبون [١].

إن المنهج الصوفي يؤمن بأن الإكتشاف البطيء لقوانين الطبيعية والكون لا يؤدي إلي التعرف علي الله إلا إذا إقترن بإدراك آخر يصفه القرآن بإدراك القلب أو الفؤاد وهما عاملان متكاملان في فهم الحياة وفي تذوق الدين.

رابعاً:

إحياً روح الإسلام وإثراء مضامين الدين : عقيدة وعبادة ومعاملة.

فمما لا شك فيه أن التصوف الإسلامي قد عمل منذ اللحظة الأولي علي الإبقاء علي روح الإسلام حية نابضة. بل متحركة فاعلة، من وراء عقائده وعباداته ومعاملاته، وامتاز الصوفية بفهم عميق ودقيق لمعاني الإسلام، واستخرجوا من وراء نصوصه وأحكامه وعباداته، معان روحية دقيقة وطريفة امتازوا بها عن غيرها، واختصوا بها دون سواهم.

ومهما يكن الموقف الذي يمكن إتخاذه إزاء التصوف من تأييد أو معارضة أو حياد، فلا أحد ينكر إرتباطه ارتباطاً وثيقاً بالثقافة والفكر والعلم،

(١) د- عبد السلام الغرميني "القيم الإسلامية في المنهاج الصوفي" ص ٣٢٦.

ولهذا أثر تأثيراً بليغاً في حياة المسلمين لما يتضمنه من معان روحية وسامية، وما من إشعاع فكري وثقافي وتربوي كان وما زال حصيناً منيعاً ضد أعداء الإسلام وخصومه.

وإذا كنا قد سمعنا كثيراً من أناس ينتقضون العمل الصوفي ورجاله بحجة أنهم معتزلون للحياة الجادة، ميالون إلي الكسل والخمول والبطالة، لكننا إن نظرنا إلي الحياة الصوفية الأول سنري أنهم كانوا أصحاب حرف معروفة في مجتمعاتهم، وسجلت لهم كتب التراجم الصوفية حرفهم التي أصبحت ألقاباً لهم نحو (الحلاج - والقواريري – والبناء – والزجاج – والحداد) مما ينفي هذه التهمة عنهم ويلقيها علي كاهل المتأخرين الذين استغل بعضهم هذا المشرب لغرض أناني ليس فيه إلا رائحة المثل الصوفية التي رتب الإنسان لخدمة أخيه طلباً لرضاه سبحانه وتعالي.

خامساً:

العناية بالجانب الأخلاقي والسلوكي.

فقد كان التصوف دائماً مدرسة تربوية تربي مريديها وطلابها تربية روحية مهذبة. مما أدي إلي طهارة المجتمع الصوفي من أدران الرذيلة والأخلاق الذميمة والسلوك الشائن، والتخلق بالأخلاق الحميدة والسلوك المذهب النظيف، وكانت عنايتهم بالأخلاق عظيمة [١].

ولقد قدم الصوفية طوال التاريخ الإسلامي أمثلة حية نابضة بتعاليم الإسلام، وكان أعلام الصوفية العظام خير قدوة للمجتماعات الإسلامية في كل العصور، فاستضاء المسلمون بنورهم وأخلاقهم وسلوكهم، وتأسي المسلمون بهم وساروا علي نهجهم، وذلك لأنهم جسدوا تعاليم الإسلام في الواقع.

سادساً:-

قدم الصوفية كثيراً من الآداب الصوفي شعراً ونثراً، تنخر به المكتبة الإسلامية اليوم وتزهو به اللغة العربية في الحب والشوق والوجد، مما أثري الأدب الإسلامي.

وأعظم ما يميز التصوف ويعلي ماكنة أدبه سموه علي الأنانية الإنسانية والأغراض الفردية، ونأي عن خوض موضوعات الاستجداء في المديح الكاذب والإنتقام والنقمة في الذم والتكبر في الفخر، وإنما انصرف إلي جوهر الشعر،

[١] د- عبد الرحمن المراكبي " التصوف الإسلامي بين أنصاره وخصومه " ط ١ ج ٢ – ١٩٩٢ ص ٤٦٨.

الإنساني من تعميق في الأحاسيس الإنسانية والتحليات النفسية، والإرتفاع بها من المدركات الضيقة الهابطة إلي الدرجات التي تعلو به وتربطه بالعالم الروحي والجو المجرد.

وجدنا ذلك في أشعار ابن الفارض، والسهروردي، والشبلي، والبوصيري، وعبد الغني النابلسي، وابن الرومي، وغيرهم كثير.

سابعاً:

كان لرجال الصوفية الفضل العظيم في نشر الإسلام في أنحاء كثيرة من بقاع العالم وعلي هذا أثبت بعض الباحثين الملامح الآتية لنشر الإسلام بواسطة المتصوفة : فقد كان انتشار الإسلام في أفريقيا السوداء جنوب الصحراء : السنغال ومالي والنيجر وغانا ونيجيريا وتشاد إنما يرجع الشطر الأكبر من الفضل إلي الطرق الصوفية.

فكانت الزوايا والرباطات التي أسسها شيوخ هذه الطرق الصوفية بؤرات لنشر الدعوة الاسلامية بين الشعوب الوثنية في غرب القارة الإفريقية وقلبها، ومرد هذا خصوصاً إلي اختلاط الصوفية بالطبقات الشعبية والمساهمة في هذه البلاد، وعيشهم بين العامة والفقراء [١].

ولذا كان إقبال الأفارقة علي الدخول في الإسلام دون تردد نتيجة لجهود هذه الطرق الصوفية التي انتشرت في القارة، وأسس لمريديها زوايا ومراكز لنشر تعاليم الإسلام وتعلم لغة القرآن.

كما تميزت طرق التصوف الحقيقة بدورها البارز في الدفاع عن المغرب العربي الأفريقي والمساهمة في صنع حضارته.

وقد اشتهرت دولتا المرابطين في هذا المضمان وأول رباط أقامه العرب بأفريقيا أسسه الوالي هرثمة بن أعين علي غرار حصن بن الرشيد العباسى ثغور البلاد الإسلامية في الشرق [٢].

والتاريخ يحدثنا كيف قام أبو الحسن الشاذلي بالدفاع عن مدينة المنصورة وهو من فقد بصره، ولكنه منح البصيرة والرؤيا الصالحة.

---

[١] د / عبد الرحمن بدوي " تاريخ التصوف الإسلامي " الكويت ١٩٧٥م وكالة المطبوعات ص ٢٥

[٢] محمد البهلي " النيبال الحقيقة التاريخية للتصوف الاسلامي " تونس مكتبة النجاح ص ١٦٣.

والتاريخ يحدثنا كيف قام الأمير عبد القادر الجزائري وهو يقاوم الفرنسيين فيذلون علي يديه.

والتاريخ يحدثنا عن الشهيد عمر المختار وكيف قاوم المستعمر الإيطالي، إنها الصوفية المجاهدة المحاربة التي تعتبر الجهاد في سبيل الله أرقي أعمال العبادة وأسماها. وهناك فرق كبير بين التصوف الذي يعني الزهد والإلتزام بالإسلام نهجاً وسلوكاً، وبين أولئك الذين أعطاهم بعض الجهلة صفات التعظيم وطلبوا منهم أموراً كلها لا يجوز أن تكون لغير الله تعالي، فكأنها شبه وثنية تركت بصماتها علي سلوك نشره الجهلة الذين يمشون مكبين علي وجوههم ولا يبحثون عن الصراط المستقيم [١]

وإذا كان التاريخ قد شهد بأن الاستعمار الفرنسي قد استخدم بعض الرجال الطرق الصوفية لخدمة أغراضه وأهدافه فإنه ليمكننا القول أن هؤلاء ليسوا من السائرين علي جادة التصوف المستقيم والزهد القائم علي القناعة، وطرح التشبث بمتع الحياة، وإنما هم شئ آخر... هم المتمسكون بانحرافات أقرب إلي الشعوذة وانغماس في باطل ليست له صلة بحق، أما التصوف المستقيم فهو الضمان لسيادة الإنسان في الحياة، وصمام الأمان ضد خطر الأنانية، وما أشدها خطرا علي الذات وعلي البشرية التصوف المستقيم، أو الزهد القائم علي القاعة هو لب رسالة الدين وجوهر الروحية، إنه ضد الشر والطمع، ضد الطغيان والاستعمار.

والحياة التي تكثر، حدة الأنانية هي حياة الإنسان الكريمة وليست إلا حياء الزاهد العابد، والحياة التي تسود فيها المادية هي حياة الأنانية والإنسانية... وحياة الإستعمار والإذلال.. وحياة الذل والتفرقة العنصرية [٢].

سلبيات التصوف:

مع بداية عمل المؤثرات الأجنبية عملها في التصوف الإسلامي، وجدنا بعض الأفكار الوافدة إليه تأخذ طريقها لتعمل عملها فيه، ومن هنا اشتدت الخصومة علي التصوف والمتصوفة، وأخذ خصوم التصوف يصبون عليه جام غضبهم وسهام نقدهم.

---

[١] أسعد السحراني "التصوف" بيروت دار النفائس ص ١٦٨.

[٢] د / محمد البهي "الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر ومشكلات الأسرة" القاهرة ١٩٨٢م ط٣ ص٦٥

فالمتصوفة وأتباعهم يدعون إلي أشياء من الممكن أن تكون سبيلاً إلي تخلف الأمة وإنكار قيمه ومبادئه من مثل : الحلول والفناء في الحب الآلهي, والاعتقاد بالحيلولة الذي من شأنه أن يسقط التكاليف كلها ومن بيتهما الجهاد والحب الإلهي علي نحو الحب الهندوكي وهو حب الفناء الذي يصرف الوالهين والعاشقين عن الإحتفاظ بما يسمي الجماعة الإسلامية التي يدعوها الإسلام،صيانتها ودفع الإعتداء عليها إلي الكفاح والجهاد بالجماعة الإسلامية ، ومثل قولهم بالرهبانية التي تشبه رهباينة النصارى وهي تناقض فكرة الجهاد في سبيل الله، كما أنها تعراض مبدأ الزواج وتكوين الأسرة لمن يسلك طريق الرهبنة [1].

ومن ثم فإن أي نوع من أنواع تفسير القرآن الكريم المختلفة من صوفية رمزية إلي تعليمية باطنية إلي تفسير بالرواية، إلي تفسير بالقصص الإسرائيلية لها نفس الحجية التي للقرآن، لقد أخذ خصوم المتصوفة عليهم عدة مآخذ من الممكن أن تكون سبيلاً إلي الحط من هذا الدين وإلي الانتقاص من مبادئه وأسسه منها :

١- القول بالرهبانية :

التي تعني الانقطاع عن الناس للتبتل والعبادة. مما يعني إضعاف الجسد، وتحريم ما أحل الله لعبادة وهي بدعة ليست من الإسلام في شئ، بل إننا لنجد القرآن يحذر من ذلك أشد والتحذير"وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ"سورة الحديد الآية "٢٧".

ثم من الذي قال أن يبتعد الإنسان عن متع الحياة ولذاتها ما دام متمشياً مع القرآن والسنة.

ألم تبح الشريعة الطيبات للناس دونما إسراف أو تقتير (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ) سورة القصص الآية "٧٧".

ألم يوجه سلمان الفارسي نظر أبي الدرداء حين دخل عليه فوجده يصوم النهار ويقوم الليل ولكنه لا يؤدي حقق زوجته ؟ !! فقال له : يا أبا الدرداء إن لبدنك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه، وينطلق أبا الدرداء إلي الرسول صلي الله عليه وسلم ويقص عليه ما حدث من سلمان فيقول صدق سلمان، صدق سلمان.

---

[1] د / محمد البهي "الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالإستعمار الغربي" القاهرة، ١٩٩١م ط١٢ ص١٧٢.

إن دعوة البعض من رجال التصوف إلي الرهبنة دعوة فاسدة بما تضمنته من غلو يؤدي إلي البعد عن صحيح الدين مما يصطدم مع القرآن والسنة.

ومن هنا فإن الناس لو أعرضوا عن الدنيا لفسدت الحياة، وتعطلت مصالح الناس (وانعكست حكمة وجود الإنسان في هذه الحياة, وإن الضعف والاستكانة والإستخذاء يخفي وراءه دائما سلبية المؤمن وهزيمته في تنازع البقاء، وبقاء الأقوياء بين الناس) [١].

٢- الإنسان الكامل :

ولا بد أولاً من توضيح مفهوم الإنسان الكامل عند بعض الصوفية والإشارة إلي مدي تأثير هذه الفكرة فيفهم سلوك الإنسان عند الصوفية، وتأثير هذا التصور في سلوك الذين ينضوون تحت تأثير الطرق الصوفية.

وإننا لنتساءل عن الكمال الذي ينشده الصوفية، هل هو شامل لمختلف جوانب و أبعاد الإنسان ؟ أم أنه كمال يتعلق بجوانب محددة ؟ ثم ما خصائص الإنسان الكامل في الفكر الصوفي ؟ وهل الصوفي فقط هو الإنسان الكامل ؟

إذا ما نظرنا إلي رأى كل من (شيدر وماسينيون) سنجد أنهما يذهبان إلي أن أصول هذه الفكرة ليست إسلامية ، بل إن أصولها ذات جذور غنوصية يهودية ومزدكية ومانوية ، بل ربما نصرانية أيضا.

فقد ذهب " شيدر" إلي أن, فكرة الإنسان الكامل قد بلغت كمال نموها في الفكر الغنوصي الصوفي، وأنها تعود في الأصل إلي صورة الإنسان الأول في الفكر الإيراني القديم و التي تبلورت في المانوية، ثم بلغت قمت مجدها في فكر إبن عربي الأندلسي، ومن ثم فهي نظرة غريبة عن علم الكلام الإسلامي [٢].

بل ويزعم أن هذه النظرية عند ابن عربي تقوم علي توحد الناسوت باللاهوت ، وعلي أن الله و الإنسان و العالم شيء واحد في الجوهر و المضمون[٣].

---

[١] د / عبد الرحمن المراكبي " التصوف الإسلامي" ج-٢ ص٤٤٦.

[٢] شيدر هينريش " نظرية الإنسان الكامل عند المسلمين مصرها وتصورها الشعري " بحث أصله محاضرة ألقت أمام شعبة برلين للجمعية الشرقية الألمانية ضمن كتاب عبد الرحمن بدوى الإنسان الكامل في الإسلام ١٩٧٦ص٤٥.

[٣] السابق ص ٦٦.

كذلك يذهب ماسينيون إلي أن فكرة الإنسان الكامل قد بدأت في تاريخ المذاهب الإسلامية من عهد موغل للقدم، وكانت نقطة ابتدائها من أسس استاتيكية آرية.

كذلك فإن الإنسان الكامل الذي ينتظره المسلمون هو من نوع البشير و يعني به "المهدي المنتظر" كما هو الحال عند الشيعة ذاهبًا في الوقت نفسه إلي أن بذور هذه الفكرة يرجع إلي أصل إيراني قديم انتقلت منه إلي الفكر اليهودي، ثم إنتقلت بعد ذلك إلي المسلمين عن طريق المسلمين الذين ينحدرون من أصول فارسية، ثم يستمر في زعمه بأن الفكرة عربية الأصل إذ نشأت في صدر الإسلام عند القبائل العربية اليمنية التي كانت الجالية اليهودية و الإيرانية تنتمي إليها قبل الإسلام حيث كانت هذه الجاليات هي الرحم التي نشأت فيها دعاوى "عبد الله أبن سبأ ومنصور القرمطى" وغيرهم من الباطنيين [١]

- **خصائص الإنسان الكامل في الفكر الصوفي الحلولى :**

يراد بالإنسان الكامل عند أتباع الفكر الصوفي أنه هو ذلك الإنسان الذي تربى علي أسس الرسالة المحمدية فعرف حقيقة وجوده بداية ونهاية، ومن ثم فقد عرف نفسه حق معرفتها، وألم بقواها ودسائسها ومنها عرف ربه، ومن عرف ربه سارع إلي عمل ما يحبه ويرضاه ويجب علي الإنسان أن يتعلم الآيات كي ينطق منها صاعداً درجات الرقي إلي تزكية علم النفوس، وعلم الكتاب والحكمة، وعلم الأسرار، وهو ما لم يكن يعلم.

فالإنسان الكامل لا يتفق كمالاته عند حد، وكلما بلغ درجة من الكمال اشتاق إلي غيرها وهكذا فمن مقام الإحسان الكامل في الإسلام إلي الإيمان، فالإحسان فاليقين حتي يبلغ مقامات الرضوان [٢].

وحينما نتأمل بعض طرق الصوفية لنطبق عليها ما ذكرناه سابقاً سنجد أن طريقة " كالإدريسية " طموح المرء فيها وشاغله الشاغل حين يتصف بالخصائص والصفات والإلهية.

[وتجل لي يـاإلهي بمقام الإحسان الجامع لأسرار كمال أعبد الله كأنك تراه، حتي أشاهد الحسن الذاتي الإلهي الكمالي المطلق الساري في جميع جزئيات العالم وكلياته فتنجذب روحي وجسمي بل كلي وسائري إلي مغناطيس

---

[١] السابق ١١٤.

[٢] شقرف الإنسان الكامل والحضارة العالمية في الرسالة المحمدية القاهرة ١٩٨٨م وكالة الأهرام للتوزيع ص٤٠.

الجمال الإلهي، فأذوب فيه ولوعا وعشقا عن كل شئ سواه حتي أكون عين العشق الآلهي، بل عين الحسن والجمال، بل حتي تكون ذاتي كلها عشقاً ذاتياً وجمالاً إلهيا] [١].

وفكرة إتحاد الناسوت بالاهوت تبدو غريبة عن الفكر الإسلامي الأصيل، وهي نفس ما يؤمن به بعض الفرق الباطنية كالدروز والنصيريين وغيرهم.

ألم يزعم النصيريون أن الألوهية قد تجسدت في "علي" ؟! ومنه انتقلت إلي سائر الأئمة من بعده [٢]

ألم يقل الدروز بتأليه الحاكم بأمر الله الذي اتحد فيه الاهوت بالناسوت، ومن هنا كانوا يقدسونه ويسجدون له ويعبدونه من دون الله كما هو معلوم عند النصاري الذين ألهوا عيسى عليه السلام [٣].

ثم إنه رغم إهتمام المتصوفة العقلي بالجانب العقلي في الإنسان، إلا أننا نجد أنهم لم يهتموا بتربية هذا الأمر عند أتباعهم، بل نجد بعض شيوخ الطرق الصوفية قد عطلوا القدرات العقلية، وشجعوا الفكر الخرافي، ونشروه بين أتباعهم لتحقيق مصالح شخصية ، وهكذا نجد أن هذه الفكرة قد تسربت إلي الفكر الإسلامي من فلسفات وديانات أخري.

٣- المعرفة الذوفية :

ذهب الصوفية إلي أن طريق المعرفة إنما يكون عن طريق المجاهدة والرياضة ومحلها القلب.أما طريقها في الإسلام فهو النظر والإعتبار في البحث والتجربة،

ومن هنا وجدنا القران الكريم يدعو أتباعه إلي التعقل والتفكر والتدبر مسايراً بذلك طبيعة الإنسان، فالأصل فيه أنه عاقل ومفكر.

لذا فإن الله سبحانه وتعالي حينما يخاطبه عن طريق وحيه إنما يخاطبه بما يتسق وطبيعته البشرية.

---

[١] أورد أحمد ابن إدريس القاهرة دار جوامع الكلم بدون ص٧٢.
[٢] د- سعد الدين السيد صالح - الفرق والجمعات الإسلامية المعاصرة ط ٢٠٠١ دار أحد ص ٩٦.
[٣] السابق ص٨٦ .

وحين دعا الصوفية إلي هذا الطريق ، فإنهم عطلوا أجل نعمة أنعم الله تعالي بها علي الإنسان وهو نعمة العقل، ومن غير المعقول أن يطلب الولي من الناس إلغاء النعمة الكبرى التي أعطاهم إياها وهي نعمة العقل.

وقد خاطب القرآن الإنسان علي مقتضي طبيعته، ومن جهة التي بها إنسان، فالقرآن الكريم ((لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلي وجوب العمل به والرجوع إليه، ولا تأتي الإشارة إليه عارضة مقتضبة في سياق الآية، بل هي تأتي في كل موضع من مواضعها مؤكدة وجازمة)) [١].

وقد ترددت مادة العقل في القرآن الكريم في تسع وأربعين آية، والقلب بمعني العقل في مائة وثلاث وثلاثين آية، والنهي بمعني العقل في ست عشرة، ووردت مادة الفكر في ثماني عشر .

والصوفية ((بإلغائهم لعقولهم يحتقرون بذلك اجل نعمة وانعم الله بها علي الإنسان وهي العقل، الذي جعله الله محل المعرفة وناطق التكاليف، ومحل التكريم، وأساس الفرق بين الإنسان والحيوان)) [٢].

إذا كان القرآن قد دعا إلي التفكير العلمي الجاد، فلم يرض للعاقل أن يعتمد علي الأوهام والظن والخيال، ولم يرض له أن يقبل شيئاً دون برهان... وهذا هو الفارق بين العقلية الإسلامية المؤمنة والعقلية الأخرى الملحدة، فالعقلية الإسلامية عقلية عملية متشبثة لا تقبل شيئاً دون برهان، ولا تضع في نصف الحقائق العلية إلا ما قام عليه الدليل القاطع [٣].

٤- المقامات والأحول :

عرف الصوفية المقام بأنه :- مقام العبد بين يدي الله عز وجل فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضيات، والإنقطاع إلي الله عز وجل [٤].

وعرفه القشيري بأنه ما يتحقق العبد بمنزلته من الآداب مما يتوصل إليه بنوع تصرف، ويتحقق به بضرب تطلب، ومقاساة تكاليف، فمقام كل أحد موضع إقامته عند ذلك وما هو مشتغل بالرياضة له [٥].

---

[١] العقاد التفكير فريفريضة إسلامية بيروت ١٩٧١ ص ٧.
[٢] د / أحمد الحوفي " القرآن والتفكير " القاهرة ١٩٧٥ ص ١٢.
[٣] د / عبد الرحمن المركبي " التصوف الإسلامي بين أنصاره وخصومة " ج٢ ص ٤٤٧.
[٤] د / سعد الدين صالح " العقيدة الإسلامية في ضوء العلم الحديث " القاهرة ١٩٩١ ج٢ دار الصفا ص ٥٨.
[٥] الطوس اللمع ص ٦٦.

إذا كان هذا هو تعريف المقام، فإن السالك تعرض في الطريقة أمور روحية لا تلبث أن تزول، وقد اصطلح الصوفية علي تسميتها أحولاً، وهي تتنزل علي الصوفي بوارد الآهي، ويقول الجنيد عن الحال :- انه حال نازلة تتنزل بالقلوب فلا تدوم [١].

ويقول القشيري عنه :- معني يرد علي قلب من غير تعمد منهم ولا اجتلاب ولا اكتساب من طرب أو حزن، أو بسط أو قبض، أو شوق، أو انزعاج أو هيبة أو احتياج، فالأحوال مواهب والمقاومات مكاسب، والأحوال تأتي من عين الجود والمقامات تحصل ببذل المجهود [٢].

وقد قسمها البعض إلي سبع مقامات، وعدها البعض تسعة، وعدها آخرون عشرة، كما نجد أنها قد انقسمت أقساماً بحسب طبقات السالكين، لكل طبقة تخصها عن الفرق الأخرى بينما التقسيمات هي " هي عند فريق آخر "، ولكنها تختلف في الدرجة بحسب هذه الطبقات ولكن النتيجة واحدة.

والذي يساعد علي هذا الإختلاف الشكلي هو التداخل القائم بين هذه المقامات بعضها مع بعض من ناحية، ومع بعض الأحوال من ناحية أخرى، فقد تصير بعض الأحوال مقامات إذا تكرر حدوثها ثم أقامت.

ولذلك تري الطوسي في اللمع يقسم المقامات غلي تسعة وهي :- **التوبة، والورع، والزهد، والفقر والصبر، والتوكل والرضا** [٣].

ثم نري السهروردي يعدها عشرة وهي :- **التوبة، والورع، والزهد، والفقر، والشكر، والخوف والرجاء ، والتوكل، والرضا** [٤].

والقول بالأحوال والمقامات وما فيها من وجد وسكر وفناء هو بدعة في الإسلام، فالإسلام صحو لا سكر فيه، وتحقيق للذات دون محولها، وتحقيق الذات لا يكون بالسحق والمحق والسكر والفناء، وإلا لتعطلك الحياة وتعطلت الشرائع، وبطلت التكاليف فلا رب يعبد ولا شرع يتبع [٥].

(١) الرسالة ص ١٥٢.
(٢) الطوسي اللمع ٦٦.
(٣) اللمع ص ٦٥.
(٤) عوارف المعارف ص ٢٣٨.
(٥) د / عبد الرحمن المركبي " التصوف الإسلامي ص ٤٤٧.

وهذا الأمر حدا بالدكتور / أبو ريان إلي أن يعبر عنه بان هذا التنظيم هو ما يسمي بالحكومة الباطنية للصوفية، ويقوم هذا التنظيم علي شكل مؤسسة ذات سلطات متفاوتة من القمة غلي القاع [١].

ثم إنه رغم إهتمام المتصوفة بالجانب العقلي في الإنسان، إلا أننا نج أنهم لم يهتموا بتربية هذا الأمر عند أتباعهم، بل نجد بعض شيوخ الطرق الصوفية قد عطلوا القدرات العقلية، وشجعوا الفكر الخرافي. ونشروه بين أتباعهم لتحقيق مصالح شخصية.

وهكذا نجد أن هذه الفكرة قد تسربت إلي الفكر الإسلامي من فلسفات وديانات أخري،

فعلينا أن ننتبه إلي هذه الأمور وأن نتذكر قول الحبيب المصطفي " ﷺ" ((تركت فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وسنتي)) .

أسأل الله سبحانه وتعالي أن يبصرنا إلي طريق الحق والرشاد، وآخر دعوانا أن الحمد الله رب العالمين وصلي الله وسلم وبارك علي سيدنا محمد وعلي آلة وصحبه أجمعين.

د/ محمد عبد النبي يوسف

[١] الحركة الصوفية في الإسلام الإسكندرية ١٩٩٤ دار المعرفة الجامعية ص ١١٥.